تحقيق الهمزة وتخفيفها في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

د. هادي عبد علي هويدي الفتلاوي

جامعة الكوفة / كليةالدراسات الإسلامية

اهتم العلماء العرب بدراسة الاصوات اللغوية، في تحديد مخارجها ، وصفاتها من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة، ومايتصل بهذه الصفات من حيث الاظهار والاخفاء او الفك والادغام وغيرها .

وكان لصوت الهمزة نصيبه الوافر في هذه الدراسات . فوصفوا مواضع اخراجها وحددوه وحددوا صفتها . قال الخليل ت ١٧٠ هـ ((واما الهمزة فمخرجها من اقصى الحلق ، وهي مهتونة مضغوطة ، فإذا رفه عنها لانت فصارت الياء والواو والالف من غير طريقة الحروف الصحاح)) وهذا القول يعد تعليلاً لتخفيف الهمزة وابدال احرف المد بها . على انهم عزوا التخفيف الى لهجة الحجاز والتحقيق الى لهجة تميم وقبائل نجد . ويتضح ذلك في قول ابي زيد الانصاري ((اهل الحجاز وهذيل واهل مكه لاينبرون، وقف عليها عيسى بن عمر فقال : وما آخذ من قول تميم الا بالنبر وهم اصحاب النبر ، واهل الحجاز اذا اضطروا نبروا...)) .

وتناول ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة ظاهرة التحقيق في الهمزة وظاهرة التخفيف فيها ((التسهيل)) فاشار الى مواضع من كلام الامام عليه السلام يحقق الهمزه ، ومواضع اخرى يسهلها وعزا ابن ابي الحديد ذلك الى اسباب تتصل بمزايا الخطاب من حيث الصياغة الادبية حيث تتطلب القرائن السجعية ذلك أي التحقيق والتسهيل مراعاة للسجعة وبالتالي فان كليهما لايخرج عن لهجات القبائل العربية . فالخطاب جاء بلغة العرب في حالتيه . ومن ثم وجدنا ابن ابي الحديد قد سجل جميع المواضع التي وردت فيها الهمزة غير محققة مراعاة للفاصلة او السجعة او محققه مراعاة للسجعة ايضاً .

واستنتج من ذلك انه تحقيق الهمزة هو الظاهرة السائدة في اللغة العربية والادبية التي عرفت في شعرهم وخطبهم ونزل بها القرآن الكريم ، اما التخفيف فهو اللغة اللينة التي يميل اليها الناس في حديثهم اليومي ومعاملاتهم .

١ - الهمز في الدراسات الصوتية عند العرب

الهمز من الظواهر التي عرفتها اللغة العربية في تاريخها الطويل، اختلف فيها الناطقون بين التحقيق والتخفيف حتى أصبحت ميداناً واسعاً للدرس الصوتي وهذا ما دعا سيبويه إلى تعليل ظاهرة تخفيف الهمز عند طائفة من العرب بقوله [1] ((واعلم أنّ الهمزة إنما فعَل بها هذا من لم يخففها لأنه بَعُدَ مخرجها، ولأنّها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي ابعد الحروف مخرجاً فثقُل عليهم ذلك لأنه كالتهوّع))، والى هذا السبب ذهب المبرّد وأضاف [2]:

((ولا يشركه في مخرجه شيء، ولا يدانيه إلا الألف والهاء))

وكلام المبرّد يفسر لنا إبدال الهمزة بحرف آخر، وذكر بعضها الألف والهاء غير أن الإبدال لم يكن محصوراً بالألف والهاء، فقد نجدها تُبدل من حروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء) كما تبدل عيناً أحياناً عند بعض الناطقين فقد قيل في إبدال العين من الهمزة [3] ((وأما العينش فقد أبدلت من الهمزة وانشدوا لذي الرُّمّة [4]:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابةِ من عينيك مسجوم

يريد: أنْ)).

أما أحوال الهمزة فقد ذكرها سيبويه في قوله [5]: ((اعلم أنّ الهمزة تكون فيها ثلاثة أشياء: التحقيق، والتخفيف، والبدل. فالتحقيق قولك: قرأتُ، ورأسٌ، وسألَ، ولؤُمَ، وبئِسَ، وأشباه ذلك)).

وقال أيضاً [6]: ((وأمّا التخفيف فتصير الهمزة بين بين، وتُبدل وتُحذف))

وستكون دراسة الهمز في هذا المبحث على محورين:

الأول: دراسة أحوال الهمز عند الناطقين بالعربية، ويتم على ضوء ما أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، وهو على حالتين:

أ: تحقيق الهمزة.

بـ: تخفيفها، ولمّا كان التخفيف في ما أورده سيبويه بنطق الهمزة بين بين أو إبدالها أو حذفها فتكون دراسة التخفيف حيث ورد نوعه عند الشارح.

الأمر الثاني: أشارت الدراسات القديمة إلى أنّ التحقيق والتخفيف (التسهيل) ظاهرة لهجية تنطق بكلٍ منهما قبائل من دون أخرى، دل على ذلك قول سيبويه[٧].

((وذلك قولك: سال في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقق كما يحقق بنو تميم)).

وقوله أيضاً[٨]: ((واعلم أنّ الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدة منهما من كلمة فان أهل التحقيق يخففون إحداهما، ويستثقلون تحقيقهما لما ذكرت لك كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة فليس من كلام العرب أنْ تلتقي همزتان فتحققا، ومن كلام العرب تخفيف الأولى وتحقيق الآخرة، وهو قول أبي عمرو، وذلك قولك[٩]. (فقد جا أشراطها) و(يا زكريا إنّا نبشّرك)[١٠] ومنهم من يحقق الأولى ويخفف الآخرة سمعنا ذلك من العرب وهو قولك: (فقد جاء اشراطها..) و(يا زكرياءُ انا ..)

وكلام سيبويه السابق في كون التحقيق ظاهرة لدى تميم والتخفيف عند أهل الحجاز لابدّ من مناقشته. قال الخليل[١١]:

((وأمّا الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق، وهي مهتوتة مضغوطة، فإذا رُفّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف عن غير طريقة الحروف الصحاح)).

ولم يذكر أنّ الترفيه والضغط محصور ببيئة معينة من دون غيرها على أننا لا ننكر وجود من يحقق ومن يخفف لكنّ الذي نعتقده أنّ التحقيق والتخفيف ظاهرتان معروفتان في كل القبائل لسبب رئيس وواضح لدى كل من يتصفح الشعر العربي قبل الإسلام وفي عصر الإسلام الأول بوصفه الدليل على اللهجات فضلاً عن الكتاب الكريم الذي ورد مهموزاً. وكل هذا لا يدل على أنّ قريشاً والحجاز لا تعرف التحقيق، إلا أننا قد نميل إلى أنّ العربي قد يجنح إلى الخفة والسهولة في الكلام في حديثه اليومي فيميل إلى تخفيف الهمزة فإذا أراد أنّ يتكلم باللغة الأدبية همز كما هو وارد في أدبهم وفي القرآن الكريم، ويمكننا الاستدلال بما رُوي عن أبي زيد من مقالة مفادها[١٢]:

((قال أبو زيد: أهل الحجاز وهُذيل وأهل مكة لا ينبرون؛ وقف عليها عيسى بن عمر فقال: ما آخذ من قول تميم إلاّ بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا. قال: وقال أبو عمر الهذلي: قد توضيت، فلم يهمز وحولها ياءاً ...))

فكلام أبي زيد لا ينفي النبر في لغة أهل الحجاز لقوله: ((إذا اضطروا نبروا)) وعلى هذا تكون رواية موسى بن عبيدة عن نافع عن ابن عمر [١٣]

((ما همز رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمزة بدعة ابتدعوها من بعدهم)) لا تقوم على دليل لأننا نسأل:

١- بأية لغة قرأ الرسول الكريم والخلفاء القرآن الكريم وقد جاء مهموزاً ؟

٢- ألم يكن عليّ من الخلفاء وهذه خطبه بين أيدينا ؟

وقيل في ظاهرة الهمز أيضاً [١٤]:

((يظهر أن الميل إلى تحقيق الهمز ظاهرة بدوية، وقد ارتبطت هذه الصفة بتميم وغيرها بوصفها قبيلة أو قبائل بدوية، وعزوف أهل الحجاز عن هذه الظاهرة لتحضرها)).

ولو فرضنا صحة هذه المقولة وهذا التعليل فإنه لا يعني أن بيئة الحجاز لا تنطق بالهمزة. ألم تكن طبقة القراء الأولى حجازية ؟

وأنّ أولى القراءات القرآنية وأحقها هي القراءة المحققة؛ وتعني [١٥] ((إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمز وإتمام الحركات...)).

وأرى على ضوء ما تقدم أن تحقيق الهمزة هو اللغة الأدبية التي عُرفت في شعرهم وخطبهم ونزل بها القرآن الكريم، أمّا التخفيف فهو اللغة اللينة السهلة التي يميل إليها الناس في حديثهم اليومي ومعاملاتهم.

٢- الهمز في شرح نهج البلاغة

١- تحقيق الهمز

وردت الهمزة محققة في شرحه لقول الإمام عليه السلام فيما يأتي:

١- قال الشارح في توضيحه لخطبة الرضي رحمه الله [١٦] :

((ومكافأة لعملهم، وكفاءاً لطيب أصلهم وفرعهم..)).

((مكافأة، بالهمز، من كافأته، أي جازيته، وكفاءاً بالهمز والمد، أي نظيراً)).

قال في لسان العرب [١٧] : ((كافأه على الشيء مكافأةً وكِفاءاً، جازاه وتقول: مالي به قِبَل ولا كفاء، أي مالي به طاقة على أن أكافئه، وقال حسان بن ثابت [١٨] :

((.... وروح القدس ليس له كفاء)).

وقال أيضاً [١٩] ((وفي حديث صفة النبي أنه إذا مشى تكفّى تكفّياً، التكفي: التمايل إلى قدّام كما تتكفأ السفينة، قال ابن الأثير: روي مهموزاً وغير مهموز، قال: والأصل: الهمز لأنه مصدر تفعّل من الصحيح.. والهمزه حرف صحيح.. والتكفي في الأصل مهموز فترك همزه ولذلك جعل المصدر تكفّياً)).

والذي أورده الشارح أن اللفظة مهموزة ولم يذكر فيها تخفيف الهمز، والذي جاء في المعجم أن اللفظة ترد مهموزة ومخففة من الهمز، فإذا خففت في مثل هذا الموضع فإنها لا تبدل، وإنما تكون بين بين، كما يرد ذلك في كلام العلماء الذين استقروا قواعد تخفيفها. قال سيبويه[٢٠]:

((اعلم أنّ كل همزة مفتوحة، كانت قبلها فتحة فإنك تجعلها إذا أردت تخفيفها بين الهمزة والألف الساكنة وتكون بزنتها محققة غير أنك تضعف الصوت ولا تتمه وتخفى لأنّك تقربها من هذه الألف وذلك قولك: سأل في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقق كما يحقق بنو تميم، وقد قرأ قبلُ بين بين)).

وهذا ينطبق على الفعل ((كفأ)) ومزيداته التي ذكرت، في الشرح وفي المعجم أيضاً، فقد أورد الشارح (مكافأة) وهي مصدر الفعل الثلاثي المزيد بألف بعد فائه، كما ورد (كِفاء) وهو أيضاً كذلك لأنّ مصدر هذا الفعل يصاغ على (مُفاعلة وفِعال). أمّا الذي أورده المعجم (تكفأ) ومصدره (التكفؤ) فهو من الثلاثي المزيد بحرفين، ولا يوجد تغيير في حركة الفعل فحركة الهمزة والحرف الذي قبلها الفتح، وفي هذه الحال لا تبدل ألفاً وإنّما تنطق بين على ما ذكره سيبويه، غير أنّ الشارح اكتفى بقوله: يأتي مهموزاً وغير مهموز، إلاّ أن الهمز جاء في الشرح محققاً .

٢ ـ المهنأ ذكره الشارح في قولهعليه السلام قال [٢١]:

((هو المصدر من هنيء الطعام وهَنُؤَ بالكسر والضم، مثل فقِه وفقُه فإن كسرت قلت ـ يَهْنَأ ـ وإن ضممت قلت: يهنُؤ، والمصدر هناءة ومهنأ، أي صار هنيئاً، وهنأني في الطعام يهنؤني لا نظير له في المهموز، هنأ وهناء، وهننت الطعام، أي تهنأت به، ومنه قوله تعالى[٢٢][... فكلوه هنيئاً مريئاً...])).

الملاحظ في كلام الشارح:

-١- أنّ الفعل مهموز.

-٢- الفعل في بنيته الصرفية يأتي من بابين (في حركة عين الفعل) من باب (فعِل يفعَل) مكسور العين في الماضي مفتوح المضارع، ويأتي من (فعُل يفعُل) مضموم العين في الماضي والمضارع، وهو متعدٍ في الأولى ولازم في الثانية.

-٣- أورد الشارح أنه لا نظير له في المهموز، وهذا هو نفسه كلام ابن منظور في المعجم[٢٣] بعد أن يورد الفعل من بابين. واللفظ مهموز عند ابن السكّيت في قوله[٢٤]: ((وقد هنأته بالولاية وقد هنأني الطعام ومرأني فإذا افردوها قالوا: أمرأني الطعام))، وقال ثعلب [٢٥] ((والمهنأ: اسم رجل مهموز)) والتخفيف في هذا اللفظ يأتي بالإبدال وعلى الشكل التالي:

- أ - تقلب الهمزة ياءاً في الماضي عندما يكون الفعل من باب (فعِل يفعَل) فتكون الهمزة في الماضي ياءاً وفي المضارع ألفاً.

- ب- تقلب الهمزة واواً في الماضي والمضارع إذا صيغ على باب فَعُل مضموم العين في الماضي والمضارع. والى هذه القاعدة أشار سيبويه في قوله [٢٦]:

((وإن كانت الهمزة مفتوحة وقبلها ضمّة وأردت أن تخفف أبدلت مكانها واواً كما أبدلت مكانها ياءاً حيث كان ما قبلها مكسوراً ...)).

ويبدو للباحث أنّ كلام الشارح: لا نظير له في المهموز يفسره كلام سيبويه في أنّ هذه الهمزة قياسها أن تكون بين بين ولم تكن كذلك لغرض صوتي فقد لا يتحقق الانسجام في الصوت إذا نطقت بين بين[٢٧].

٣ - قوله عليه السلام [٢٨] ((فلقد خبأ الدهر لنا منك عجباً)). قال الشارح: [٢٩] ((وخبأ، مهموز، والمصدر الخبء، ومنه الخابية إلا أنّهم تركوا همزها، والخبء أيضاً والخبيء على فعيل: ما خبيء)).

جاء في لسان العرب[٣٠] : ((خبأ الشيء يخبؤه خبأ ستره، ومنه الخابية، أصلها الهمزة من خبأت إلاّ أنّ العرب تركت همزه قال أبو منصور: تركت العرب الهمز في أخبيت وخبيت وفي الخابية لأنّها كثرت في كلامهم... وفي التنزيل[٣١] [الذي يخرج

الخبء في السماوات والأرض..] والتخفيف في هذه اللفظة يأتي بالحذف، وهو أحد طرق تخفيف الهمز عند الذين لا يحققونها. قال سيبويه [٣٢]:

((وقد قال الذين يخففون: [... ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخَبَ في السماوات]. حدثنا بذلك عيسى وإنمّا حذفت الهمزة هاهنا لأنك لم تُرد أن تُتمّ وأردت إخفاء الصوت فلم يكن ليلتقي ساكن وحرف هذه قصته، كما لم يكن ليلتقي ساكنان)).

. ويرى الباحث أنّ الذي ذكره سيبويه في تخفيف الهمزة هنا لهجة ولم يكن قراءة إذ لم نقف عليه في كتب القراءات التي تيسّرت لنا وإن لم يشر سيبويه إلى أنّه قراءة مع إن عيسى بن عمر من القراء فضلاً عن إن القراءات في أغلبها تعود إلى أصول لهجية .

وقال أيضاً [٣٣] ((ومّما حذف في التخفيف لأنّ ما قبله ساكن، قوله: أرى وترى ويرى ونرى... وحدثني أبو الخطاب أنّه سمع من يقول: قد أرْآهم. يجيء بالفعل من رأيت على الأصل، من العرب الموثوق بهم)).

٤ - ومن المهموز الوسط أورد الشارح قوله[٣٤] ((وأكملوا اللأمة، واللأمة بالهمز، الدرع والهمزة ساكنة على - فَعْلة- مثل النأمة للصوت)). والتخفيف في هاتين الكلمتين يتم بإبدال الهمزة ألفاً لقول سيبويه:[٣٥] ((وإذا كانت الهمزة ساكنة وقبلها فتحة فأردت أن تخفف أبدلت مكانها ألفاً ، وذلك في قولك: رأس وبأس وقرأت، راس وباس وقرات)).

٢ ـ تخفيف الهمز

وردت ألفاظ خففت فيها الهمزة بالإبدال وغيره وأمثلتها وبعضها أشار فيها إلى لغات الناس في همزها أو تسهيلها وهي على ما يأتي:

[١]- ذكر الشارح قول الإمام عليه السلام [٣٦] ((ناواه)) قال: عاداه، واللفظة مهموزة وإنمّا لينّها لأجل القرينة السجعيّة، وأصلها: ناوأت الرجل مناوأةً ونواءاً، وفي المثل: إذا ناوأت الرجل فاصبر)). وقال [٣٧] ((المستحذي)) الخاضع وقد يُهمز، وقيل لإعرابي في مجلس أبي زيد: كيف تقول: استحذأت؟ فقال: العرب لا تستحذيء وهمزه وأكثر ما يستعمل مُليّناً، واصله من حذو خذواً أي استرخى، ويجوز: خذِي بكسر الذال ...)).

وقال [٣٨] ((والاستلام في اللغة لمس الحجر ولا يُهمَز لأنّ أصله من السّلام وهي الحجارة كما تقول: استنوق الجمل وبعضهم يهمزه)).

وفي هذه الألفاظ نذكر قول ابن سيده قال [٣٩] ((ناوأت الرجل وناويته)) وقال[٤٠]((قال ابن السكّيت: مما همزت العرب وليس أصله الهمز قولهم استلأمت الحجر، وإنما هو من السلام، وهي الحجارة، وكان الأصل استلمت)).

وفي تخفيف الهمزة ذكرت أقوال ابن أبي الحديد أعلاه يثبت فيها:

(١) ألفاظاً مهموزةً وقد خُففت مثل: ناوأ – المستخذىء.

(٢) ألفاظاً غير مهموزة وقد همزها بعض العرب مثل الاستلام لمس الحجر.

والتخفيف يكون بالحذف والإبدال، والذي حصل فيما ذكرنا إبدال الهمزة ألفاً في ((ناوأ)) وإبدا ل الهمزة ياءاً في ((المستخذي)) وقد جرى الإبدال على وفق كلام أهل اللغة بإبدال الهمزة إلى الحرف الذي منه حركة ما قبلها ومؤيد بكلام ابن منظور [٤١]:

((ناء بحمله ينوء نوءاً – نهض بمشقة... وأصله الهمز..)).

وأصحاب المعاجم في ذكرهم الكلمات المهموزة يؤكدون الأصل ولكنه خفف على عادة العرب. فضلاً عن ذكر الشارح ألفاظاً غير مهموزة وهمزها بعضهم مثل المستحذي التي لا تهمز في الغالب واستلمت التي لا تهمز، فقد ثبت الشارح أقواله فيها وهي منسجمة مع أقوال علماء اللغة يؤيد دقة الشارح وقدرته العلمية في تحمل أعباء القيام بشرح مثل هذا الكتاب الكبير كلام ابلغ العرب بعد رسول الله ﷺ.

[٢] - إبدال الهمزة ياء :

قال في شرحه لكلام الإمام عليه السلام [٤٢] ((الرويّة: الفكرة واصلها الهمز، روأت في الأمر، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذة نحو: البريّة، من برأ، خلق، والذريّة، من ذرأ، أي خلق أيضاً والدريّة، أي ما يستتر به الصائد، أصله من درأت، أي دفعت وفلان بريّ، أي بريء)).

والوقوف على ما حصل في هذه الكلمات يستلزم:

١- الوقوف على معناها وبنائها في المعجم العربي، وما إذا كان معناها مهموزةً يختلف عنه غير مهموزة أم لا يختلف ؟

٢- أحصل الإبدال بين الهمزة و أحد أصوات المدّ؟ أهو موافق لقوانين اللغة في الإبدال ؟

ولمعرفة الحالة الأولى نلحظ ما جاء في لسان العرب، قال[٤٣]:

((روّ أ في الأمر ترويئاً وتروئة: نظر فيه، وتعقبه ولم يعمل بجواب وهي الرويئة، وقيل: إنمّا هي الرويّة بدون همز، ثم قالوا: روّ أ: مهموز على غير قياس، كما قالوا: حلأت السويق، وإنما هو من الحلاوة.. وفي الصحاح: إنّ الرويّة جرت في كلامهم غير مهموزة. التهذيب: روّ أت في الأمر..)).

وقال أيضاً [٤٤] ((البارئ من أسماء الله تعالى، والله البارئ والذارىء وفي التنزيل[٤٥] [... البارئ المصور...]. وقال تعالى [٤٦] [... فتوبوا إلى بارئكم...] وقال: البارئ هو الذي خلق الخلق لا عن مثال.. وفي التهذيب: البريّة: الخلق بلا همز. قال الفرّاء: هي من برأ الخلق، أي خلقهم واصلها الهمز وقد تركت العرب همزها ونظيرها النبي والذريّة، وأهل مكة يخالفون غيرهم يهمزون البريئة والنبيء والذريئة..)).

وفي - درأ- قال في لسان العرب [٤٧] ((الدرء: الدفع، دراه يدرؤه درءاً ودراءة.. ودارأت بالهمز: دافعت.. والأصل في التداري: التدارؤ فترك الهمز.. وقال الأصمعي: وهو مهموز. قال ابن الأثير: الدريّة بغير همز حيوان يستتر به الصائد فيتركه يرعى مع الوحوش)). وفي التنزيل العزيز[٤٨] [... فادّارأتم فيها ...].

أما الفعل - ذرأ- فقد قال فيه: [٤٩] ((في صفات الله تعالى الذارىء وهو الذي ذرأ الخلق، أي خلقهم.. وفي حديث الدعاء: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق وذرأ وبرأ.. وكان الذر مختص بخلق الذريّة، قال ابن بري: جعل الجوهري الذريّة أصلها الذريئة)). ومن خلال عرض الألفاظ في المعجم وضح لنا:-

١ـ أن معناها مهموزة غير معناها وهي غير مهموزة، يتّضح ذلك من كلام الفرّاء في اللسان (البريّة من البري وهو التراب) فأن برى غير برأ وكلام ابن سيده [٥٠] ((فهي كلمات مهموزة غير معناها من دون الهمزة يقال: روّأت في الأمر وروّيت رأسي بالدهن)) ولو تابعنا الأفعال درى وذرا وبرى في المعاجم وهي غير مهموزة لأتضح اختلاف معناها.

قال ابن أبي الحديد [51] ((ثم اقسم بالذي فلق الحبّ وبرأ النسمة.. وهذا القسم لا يزال أمير المؤمنين يُقسم به وهو من مبتكراته ومبتدعاته)). ويكون برأ بمعنى خلق وليس بمعنى التراب الذي ذكره الفرّاء.

٢- صيغت هذه الأفعال على (فعيله) فصارت: بريئة، ذريئة، ودريئة وعلى شاكلتها.

٣- من المتفق أن تبدل الهمزة ألفاً أو واواً أو ياءاً على وفق القواعد المستقراة من كلام العرب عند من يخفف الهمزة لأنّ الإبدال أحد طرق التخفيف عندهم، فقد قلبت الهمزة ياءاً وأدغمت بياء (فعيل) فصارت: بريّة وذريّة ودريّة... على أنّ من العلماء من يراها غير قياسية كابن سيده ومضمون كلامه [52] لو كان على القياس لكان مثل خطيئة يهمز مرة ويبدل أخرى، وقياسه قياس النبيء من نبأت بمعنى: أخبرت لأنه أنبأ بحق الله تعالى، وانبيء، وهو تخفيف إبدالي، وفيه آراء متعددة. والذي نهدف إليه من المناقشة السابقة هو ما يأتي:

أيتم إبدال الهمزة من أحرف المد؟

لقد تناول ذلك الدكتور عبد الصبور شاهين في كلامه الذي يتضمّن حقيقة العلاقة بين الهمزة وأحرف العلة ومضمون كلامه[53]: يجب أن نعرف الهمزة من الناحية الصوتية فهي صوت يخرج من الحنجرة دائماً، صوت حنجري انفجاري وهي بذلك تعد من الصوامت، وأصوات المدّ انطلاقية تخرج من الفم بعيدة عن الحنجرة والحلق واللهاة، ثم هي أصوات مجهورة وهناك ما يشبه التعارض بين طبيعة الهمزة من جانب وطبيعة الحركات من جانب آخر يتمثل في الفروق التالية:

١- المخرجان متباعدان.

٢- الهمزة مهموسة والحركات مجهورة.

٣- الهمزة انفجارية والحركات انطلاقية.

٤- الهمزة صوت صامت مستقل وحروف العلة صوت حركي انتقالي.

ثم قال[54]: ((تقرر، لا علاقة صوتية مطلقاً بين الهمزة وبين أصوات المدّ، فكل ما نعرفه في هذه المسألة يوحي بالتباعد الذي ينفي الإبدال)).

وقال أيضاً [٥٥]: ((إذن فالقول بوقوع الإبدال بين الهمزة من جانب وأصوات المدّ والعلّة من جانب آخر لا تؤيّده الحقيقة الصوتية لبعد ما بين الجانبين، وهو قول لا ينهض لتفسير مشكلة التغيير التي تتعرض له الكلمة العربية لأنّ هذا التغيير خاضع لجملة من العوامل التي تتصل بخصائص النطق..)).

ويرى الباحث أنّه على الرغم مما عرضه الدكتور عبد الصبور شاهين من خصائص الحروف وصفاتها سواء أحرف المدّ أم الهمزة وهو أمر جدير بالإعجاب لما فيه من دقة الوصف وتحديد المخارج. ولكن الذي ينبغي ألاّ يتصوره أحد أنّ علماءنا الأقدمين قد غابت عن أذهانهم صفات الحروف التي يُبدل بعضها من بعض، وأنّهم لم يقفوا وقفة علمية دقيقة أمام إمكان تبادلها للعلاقة المخرجية فيها والصفات المتقاربة التي تجعلها تتبادل من بعضها، وليس أدلّ على ذلك من قول سيبويه[٥٦] في باب الوقف في الواو والياء والألف:

((وهذه الحروف غير مهموسات وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها؛ ولا أمدّ للصوت فإذا وقفت عندها لم تضمها بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها فيهوي الصوت إذا وجد مُتّسعاً حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة، وإذا تفطنت وجدت مسّ ذلك وذلك قولك: ظلموا ورَمَوْا، وعَمِي وحُبلى)).

وقال [٥٧] ((وزعم الخليل أن بعضهم يقول: رأيت رجلأ فيهمز، وهذه حُبلأ، وتقديرهما: رَجُلَعْ وحبلعْ فهمز لقرب الألف من الهمزة حيث عُلم أنه سيصير إلى موضع الهمزة فأراد أن يجعلها همزة واحدةً وكان أخفّ عليهم)).

هذه الأقوال أدلة على أن امتداد الصوت في أحرف المدّ يجعل الصوت ينقطع عند مخرج الهمزة وآنذاك لا يبقى سبب يمنع التبادل بين الهمزة وأحرف المدّ. فضلاً عن عدم دقة المُحدَثين في عدّهم الهمزة مهموسة لأنّها مجهورة عند الأقدمين.

ولعل ابن جنيّ هو الآخر انتبه إلى هذه الناحية، قال في تفسير قلب أحرف المدّ إلى الهمزة [٥٨]. ((وذلك كقولنا في شرح حال الممدود غير المهموز الأصل؛ نحو سماء، وقضاء. ألا ترى أن الأصل سماو، وقضايٌ، فلما وقعت الواو والياء طرفاً بعد ألف زائدة قلبتا ألفين فصار التقدير بهما إلى سماا، وقضاا، فلما التقت الألفان تحركت

الثانية منهما فانقلبت همزةً، فصار ذلك إلى سماء، وقضاء. أفلا تعلم أن أحد ما قدّرته ـ وهو التقاء الألفين ـ لا قدرة لأحد على النطق به)).

ويرى الباحث أنّ كلام ابن جنّي يدعم قول سيبويه إذ أنّ التقاء الألفين مسألة تخمينية لا تصدق في النطق ولا تجعل الألف الثانية متحركة فلا يمكن ذلك على الحقيقة، وإنّما الذي يمكن أنّ صوت الألفين يمتد أكثر حتى ينقطع عند مخرج الهمزة فيقلب همزةً.

وهذه أدلة يراها الباحث كافية لتفسير الإبدال بين أحرف المد والهمزة فيما رأى الأقدمون .

الهوامش

(1) الكتاب ٣ / ٥٤٨؛ وينظر: شرح المفصل لابن يعيش ٩ / ١٠٧
(2) المقتضب للمبرّد ١ / ١٥٥
(3) سر صناعة الإعراب لابن جنّي ١ / ٢٣٤
(4) ديوان ذي الرّمة ١ / ٣٧١؛ ورويت في الديوان: أأن ، بالهمزة
(5) الكتاب ٣ / ٥٤١
(6) نفسه ٣ / ٥٤١
(7) الكتاب ٣ / ٥٤٢
(8) نفسه ٣ / ٥٤٨ ـ ٥٤٩
(9) سورة محمد / من الآية ١٨
(10) سورة مريم / من الآية ٧
(11) مقدمة العين ١ / ٥٢
(12) لسان العرب ١ / ٢٢.
(13) الإتقان للسيوطي ط/٣ ، ١ / ١٦٩.
وينظر : اللهجات العربية في التراث ١ / ٣١٧.
(14) لهجة تميم وأثرها في اللغة الموحدة د. غالب المطّلبي ص/ ٨٥.
(15) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١ / ٢٠٥.
(16) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٣. وينظر: منهاج البراعة ١ / ١٢.
(17) لسان العرب ـ كفأ ـ ١ / ١٣٩.
(18) شرح ديوان حسان بن ثابت ص/٦٢ ، وصدره (وجبريل رسول الله فينا).
(19) لسان العرب ـ كفأ ـ ١ / ١٣٩.
(20) الكتاب ٣ / ٥٤١ ـ ٥٤٢.
(21) شرح نهج البلاغة ٧ / ٢٠٩.
(22) النساء / من الآية / ٤.
(23) لسان العرب ـ هنأ ١ / ١٨٣ .
(24) إصلاح المنطق ١ / ١٤٩.
(25) فصيح ثعلب : ص/ ٧٣.
(26) الكتاب ٣ / ٥٤٣.

(٢٧) في الفعل السابق (كفأ) عند تخفيفه نطقت الهمزة بين بين أما في هذا الفعل فقد أبدلت، وقد فسر السيرافي ذلك في قوله:((فأن قال قائل: لـِمَ قلبتها في هذا الموضع ياءاً محضة أو واواً محضة وجعلتها بين بين فيما قبل ؟ الجواب: إن همزة بين بين إنما هي الهمزة في الحرف الذي منه حركتها فإذا كانت مفتوحة وقبلها ضمة أو كسرة لم يستقم أن تجعلها بين بين وتنحو بها نحو الألف لأنها مفتوحة والألف لا يكون ما قبلها إلا مفتوحاً فقلبناها واواً محضة)) ، هامش الكتاب ٣ / ٥٤٣.

(٢٨) شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٨٨.

(٢٩) نفسه، ١٥ / ١٨٨.

(٣٠) لسان العرب - خبأ- ١ / ٦٢.

(٣١) سورة النمل / من الآية ٢٥.

(٣٢) الكتاب، ٣ / ٥٤٥.

(٣٣) الكتاب، ٣ / ٥٤٦.

(٣٤) شرح نهج البلاغة، ٥ / ١٩٥.

(٣٥) الكتاب، ٣ / ٥٤٣.

(٣٦) شرح نهج البلاغة، ٦ / ٣٩٦.

(٣٧) نفسه، ٦ / ٤٣٨.

(٣٨) نفسه، ٩ / ١٤٨

(٣٩) المخصص ،١٤ / ١٩

(٤٠) نفسه ١٤ / ٦

(٤١) لسان العرب - نوأ- ١ / ١٧٤.

(٤٢) شرح نهج البلاغة، ٦ / ٣٩٢.

(٤٣) لسان العرب - روّأ - ١ / ٩٠ .

(٤٤) لسان العرب - برأ - ١ / ٣١.

(٤٥) الحشر / ٢٤.

(٤٦) البقرة / ٥٤.

(٤٧) لسان العرب - درأ- ١ / ٧٨.

(٤٨) البقرة / من الآية ٧٢.

(٤٩) لسان العرب - ذرأ- ١ / ٧٩.

(٥٠) المخصص لابن سيده، ١٤ / ٢.

(٥١) شرح نهج البلاغة ٧ / ٩٩.

(٥٢) ينظر المخصص ١٤ / ٧ – ٨.

(٥٣) ينظر: المنهج الصوتي للبنية الصرفية د. عبد الصبور شاهين ص/ ١٧٢.

(٥٤) المنهج الصوتي للبنية الصرفية، ص/ ١٧٢.

(٥٥) نفسه ص/ ١٧٣.

(٥٦) الكتاب ٤ / ١٧٦.

(٥٧) نفسه ٤ / ١٧٦ – ١٧٧.

(٥٨) الخصائص، ١ / ٢٥٩.

مصادر البحث ومراجعه :

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن لأبي بكر جلال الدين السيوطي، ط/٣، ١٣٦٠هـ-١٩٤١م.

٣- إصلاح المنطق لابن السّكّيت (١٨٦هـ-٢٤٤هـ) شرح وتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط/٢، ١٩٥٦-١٣٧٥هـ.

٤- الخصائص، صنعة أبي الفتح عثمان بن جني المتوفى ٣٩٢هـ، تحقيق محمد علي النجّار، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.

٥- ديوان ذي الرّمّة غيلان بن عقبة العدوي المتوفى ١١٧هـ، شرح الإمام أبي نصر احمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي، رواية الإمام أبي العباس ثعلب، حققه وقدم له الدكتور عبد القدوس أبو صالح، دمشق، مطبعة طربين ١٩٧٣م.

٦- سر صناعة الإعراب، صنعة الشيخ أبي الفتح عثمان بن جنّي النحوي إلى أبي بكر عبد الواحد بن عرس بن فهد بن احمد الازدي، ج/١، حققه لجنة من الأساتذة مصطفى السقا، إبراهيم مصطفى، محمد الزفزاف وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ملتزم الطبع والنشر، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط/١، ١٣٧٠هـ-١٩٥٤م.

٧- شرح ديوان حسان بن ثابت، الدكتور محمد درويش، الناشر: دار المعارف بمصر- القاهرة.

٨- شرح المفصّل تأليف موفق الدين بن يعيش النحوي المتوفى ٦٤٣هـ عالم الكتب- بيروت، مكتبة المثنى- القاهرة.

٩- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط/٢، ١٣٧٥هـ ١٩٦٥م.

١٠- العين، للخليل بن احمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ) تحقيق الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر.

١١- فصيح ثعلب والشروح التي عليه، نشر وتعليق الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي، ط/١، ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م؛ الناشر، مكتبة التوحيد بدرب الجماميز لصاحبها علي خربوس، المطبعة النموذجية.

١٢- كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، توفي ١٨٠هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج/١، دار القلم ١٣٨٠هـ ١٩٦٦، ج/٢، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ج/٣، ٤،الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

١٣- لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الافريقي المصري المتوفى ٧١١هـ، دار الفكر- دار صادر- بيروت.

١٤- اللهجات العربية في التراث للدكتور احمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

١٥- لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، غالب فاضل المطلبي، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

١٦- المخصص، تأليف أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيدة، توفي ٤٥٨هـ، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر- بيروت.

١٧ـ المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد توفي ٢٨٥هـ، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب- بيروت.
١٨ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي- دار الشعب.
١٩ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، لقطب الدين أبي الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي، توفي ٥٧٣هـ، منشورات المرعشي، تحقيق عبد اللطيف الكوهكمري.
٢٠ـ المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، بيروت، شارع سوريا، بناية حمدي وصالحة.
٢١ـ النشر في القراءات العشر، تأليف الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي المشهور بابن الجزري المتوفى ٨٣٣هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، أشرف على تصحيحه ومراجعته علي محمد الضبّاع.